— رؤياي —

رسالة في (٨٦) صفحة للأستاذ عارف العارف من رجالات فلسطين ضمنها آراء له في الأوضاع والأشكال والأسس التي يطمح ان يرى الأمة العربية صارت اليها في مستقبلها القريب ، وقد جعل ذلك بطريق الرؤيا والخيال ويستشف من خلال ما تعرضه هذه الرؤيا تصوير لحالة الأمة العربية في شؤونها السياسية والاجتماعية والدينية والفكرية . وقد تخيل المؤلف الجزيرة العربية الكبرى قد أخصبت وتحولت صحاريها الرملية وبواديها إلى حدائق غناء ، وتبدل خرابها قصوراً وقفرها أنهاراً ، وشمسها المحرقة نابت عن الكهرباء والبخار في الاضاءة وتحريك الآلات ، وقضي على حياة الخيام والظعن ، واتصلت أجزاء الجزيرة ونواحيها ، بعضها ببعض ، بسكك الحديد والطيارات وأنشئت المدارس والمصانع والمعامل والجسور والمرافئ .. ويصور العرب وقد استرجعوا مجدهم وعزهم فهم ليسوا أسرى العادات والتقاليد كما كانوا وقد أصبحوا (متمسكين بأذيال العلم والفن والمنطق والفلسفة الرائقة الحقيقية) ص ١٠ ولعل الزمان غير البعيد يجعل من حلم السيد العارف حقيقة تقر بها عينه في اليقظة كما قرّت في المنام وينبثق الفجر الذي طال انتظار العرب سطوعه فيساهموا في بناء العالم الجديد ، ورفع صرح الانسانية والحرية والثقافة . غير ان التمسك (بأذيال العلم والفن والمنطق والفلسفة الرائقة) وحده لا يجعل من المجتمع العربي المنتظر الذي يتخيله مجتمعاً صالحاً فاضلاً ، وهذه ؛ ظاهرة من ظواهر الحضارة والمدنية وليست أساساً لها ، وإنما قوام المجتمع الخلق المتمثل في طائفة من العادات والتقاليد الصالحة المتوارثة في المجتمع والمنبثقة من روح أهله ، ولم نسمع ان شعباً قام على العلم وحده ، أو الفن أو المنطق او الفلسفة ، وهي أمور كغيرها من مستلزمات الحضارة ، مرتبطة بالتغير والتبدل والانتقال ، وتابعة للنسخ والمسخ والمحو والإثبات ! وقد عاشت الشعوب وتألفت المجتمعات ودامت حيويتها بالخلق وحده ، بدون الفلسفة وبدون دراسات المنطق ، وبدون الفنون ! وانهارت أمم ودول وهي رَيّا بالعلوم والفنون والفلسفة والمنطق ولكنها عارية من الخلق ! فاذا كنا نتخيل مجتمعاً عربياً في الآتي ، ونلفت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اليه الأنظار من الآن مع إعداد العدة له ، فمن الواجب ان ننبه الى ان مجتمعاً مثل هذا لا يمكن ان يقوم على العلم وحده ، او الفلسفة والمنطق والفن والانطلاق من العادات والتقاليد التي تمثل فيها الأمة وتتكون منها شخصيتها الاجتماعية ! وإذا كنا نحب ان لا نرى بين العرب في هذا المجتمع المنتظر ، مع التأكد من عدم إمكان ذلك ، (لا ظالماً ولا مظلوماً ولا ضارباً ولا مضروباً ، ولا قاتلاً ولا مقتولاً ، كما يتخيل المؤلف (ص ١١) ؛ فمن الحكمة والمنطق ان نؤسسه على الخلق الفاضل والعادات الفاضلة قبل أي شيء آخر ، ونجاري زماننا وشعوبه في الاستعداد والأخذ بالقوة بجميع مفاهيمها ! وها إننا نرى في هذا الصراع العالمي أن العلم والمنطق والفلسفة وشتى أنواع الفنون قد عجزت أن تعطينا مجتمعاً فاضلاً .. وعجز القرن العشرون كله ، رغم التقدم الباهر العجيب فيه ، في الحضارة والعلم والفلسفة ، ان يكون له طوابع وسمات غير ما كان للعصور المظلمة السالفة ! ودم الانسانية الذي أهرقه العلم والفلسفة في هذا العصر يفوق مادة ومعنى كل دم للانسانية هراقة الجهل في العصور التي سبقته حتى القرون الأولى ! .

وقد طاف بهذه الرؤيا مغامز عدة ووخزات جمة يحسن تنبيه المؤلف اليها ، وإن كنا لا نعتقد انه أرادها لذاتها وإنما أوردها بقصد التنظير والتمثيل لحالة العرب الراهنة ليتسنى له المقابلة بينها وبين الآتي المنتظر . ومن ذلك : نسبته الى العرب اليوم التعصب الشديد ، والقول بالترهات والأباطيل ومحاربة حرية الفكر والعقل والضمير (ص ١١) . والعرب ليسوا أكثر تعصباً من غيرهم ، ولا يكون التعصب دائماً ممقوتاً ، ومنه التعصب للحق والرأي الصواب والمقدسات الدينية والوطنية ؛ وكذلك ليسوا على هذا الشكل الخيالي الذي وضعهم فيه من الأخذ بالخرافات والأضاليل وإنكار العلم والعقل وحرية الفكر ! على ان الخرافات لا يخلو منها مجتمع في العالم مهما سما شأنه ، ومهما ارتقى علماً وفناً وفلسفة ! ان الكاتب يريد ان يكون مستقبل العرب خيراً من حاضرهم ، ولكن هذا لا يستدعي ان يصورهم مشوهين ومعيوبين اليوم ؛ ليجعل منهم كملة وصحيحين في الغد !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن ذلك انتقاده عقوبة القاتل بالقتل ، ويرى ان ذلك لم يُجد نفعاً ، ويجد من الواجب محاربة شرور المجتمع بمنع القتل وعقوبته (ص ٦٠) ، وهو كلام نظري خيالي يناقضه الواقع وغريزة الانسان حتى في اعظم بلاد العالم رقياً ، ويصطدم بالنص الرائع : (ولكم في القصاص حياة !) .

ومن ذلك تخيله ان العلم صائر الى جعل الناس قادرين ان يلدوا اذا شاؤا البنين واذا شاؤا البنات ، وان يعرفوا قبل الوضع باليقين جنس الجنين (ص٥٢) ! وعلم ما في الأرحام من خصائصة جلّ وعلا : (ويعلم ما في الأرحام) ، وهو مما استأثر به الخلاّق ومن الأمور الخمسة الغيبية التي لا يعلمهن الا الله ، وكذلك التصوير في الأرحام : (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) والعلم والفن عاجزان عن تحقيق ذلك .

ومثل ما ذكرنا تصوره إبطال قاعدة الإرث التي جاء بها الاسلام ونص عليها القرآن ، وعدم التفريق بين الذكر والأنثى في ذلك ، والتساوي التام في كل شيء بين الجنسين (ص ٥٣) ، وحدوث انقلاب في المساجد والصلاة واساليبها (ص ٦٧) وتغير اللغة العربية في خطها وحروفها واملائها وقواعدها (ص ٥٩) وهذه وأمثالها من النزعات المتطرفة التي يصعب تطبيقها ولا يفيد تحقيقها .

ولو أننا نحن في الواقع والحقيقة هذا المجتمع الذي تخيله الكاتب لما خلي من المؤاخذات ، ولما سلم من الانتقادات ونحن ما نزال متأثرين بأوهام عن المجتمع الغربي زهدتنا في مجتمعنا وتراثنا فنحسب ان كل ما يعكسه هذا المجتمع حسن وصواب ، فلا نفرق بين الصالح منه والفاسد والرديء والجيد . والعقلاء والمفكرون تذمروا كثيراً من مفاسد هذا المجتمع وشكوا ما فيه من شرور ! وها هي ذي المدنية الاوروبية تحترق وتسقط مضرجة بدمائها في الصراع القائم اليوم ، ويردّد قادة العالم نشدان مجتمع أفضل ومدنية أقوم ، ومن واجبنا ان ننتظر مصير العالم بعد هذا الصراع ، ومصير المدنية والحضارة ، ونتطلع الى المدنية الجديدة والمجتمع العالمي الجديد فنساهم في بناء مجتمع فاضل ومدنية شريفة تستقي من تاريخنا وحضارتنا أولاً ، ثم من النافع المفيد في العالم المنتظر الجديد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والدعوة اليوم الى اعتناق مبادئ اجتماعية وعادات وتقاليد مستوحاة من المجتمع الغربي المنهار لا تفيد مجتمعنا وبلادنا ما دمنا لا ندري ما يطلع علينا به الغد من صور الحياة الجديدة وألوان المجتمع الجديد ! ولماذا لا ندعو الى اصلاح مجتمعنا على اساس الإبقاء على مزايانا الخلقية وفضائلنا العنصرية وعاداتنا وتقاليدنا الرضية مع قبول كل ما لا يتعارض وذلك من النافع الجديد ! فمنهجنا الاصلاحي من الواجب ان تؤخذ مواده من حياتنا وتاريخنا ، وينبغي ان تستوحي روحه من شريعتنا وقوميتنا ، فجميع ذلك من العرب والى العرب .. وفيه كل حسن !

أديب التقي